الباب الثانى

مقـــدمة

التشيع والأدب

جاء الأدب الشيعى صورة صادقة لما وقع على العلويين من اضطهاد. فقد قتل علىّ، وأصبح آله يُستذلون ويُضامون، ويُقصون ويمتهنون، ويحرمون ويقتلون، ويخافون ولا يأمنون على دمائهم ودماء أوليائهم. فقتل أنصار على فى كل قطر وكل مصر فى عهد معاوية، وعذبوا تعذيبا مرا، قطعت منهم الأيدى والأرجل على الظنة. من ذكر بحب آل علىّ سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. وكان البلاء يشتد على العلويين يوما بعد يوم. فقتل الحسين على صورة مؤلمة فى كربلاء، ثم جاء الحجاج فبطش بهم بطش عزيز مقتدر حتى أصبح اتهام الرجل بالزندقة والكفر أهون عليه بكثير من اتهامه بحب آل علىّ. فقد أفتن الأمويون فى طرق الإعدام، فمن دفْن للناس وهم أحياء، إلى صلب على جذوع النخل، إلى حرق، إلى حبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس حتى يقضى نحبه جوعا وعطشا. كانوا يرتكبون هذه الآثام فى وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا فيقطعون رأس الابن أو الزوج ويبعثون بهذا الرأس إلى الأم أو الزوجة ويلقونه فى حجرها. وكانوا يصلبون

الناس ويتركونهم حتى تنبعث منهم الروائح الكريهة ، ثم يحرقونهم ويذرونهم فى الهواء . وسب الأمويون عليا على المنابر واخترعوا له المثالب والنقائص . وحرموا على الناس ذكر اسمه أو اسم أحد من أبنائه كما حرموا على الناس أن يسموا أبناءهم عليا أو حسنا أو حسينا .

ثم جاء دور بنى العباس ، وكانوا للعلويين أشد كرها ، وأعظم بغضا ، فأمعنوا فيهم قتلا وحرقا ، واضطهادا وتعذيبا . فأمر المنصور فحمل إليه من المدينة كل من كان فيها من العلويين مقيدين بالسلاسل والأغلال ، ولما وصلوا إليه وكان بالهاشمية ، حبسهم فى سجن مظلم لا يعرف فيه ليل من نهار . وكان إذا مات واحد منهم ترك معهم . وأخيرا أمر بهدم السجن عليهم . وفى ذلك يقول أحد شعراء الشيعة :

واللهِ ما فعلَتْ أميةُ فيهمُ مِعْشَارَ ما فَعَلَتْ بنو العباسِ

وقال أبو فراس :

ماناله منهمْ بَنو حرب وإنْ عَظمَتْ تلكَ الجرائمُ إلا دونَ نَيْلِكُمُ

وقال الشريف الرضى :

ألا لَيْس فعلُ الأَولينَ وإنْ علاَ عَلَى قُبحِ فِعلِ الآخرينَ بِزَائِد

وقد بالغ الرشيد فى التنكيل بالعلويين . ولم يخف الضغط عليهم إلا حين ضعفت الخلافة العباسية وأصبح السلطان الفعلى فى الممالك الإسلامية للترك والديلم وبنى حمدان .

كل هذه النكبات قد أثرت تأثيرا كبيرا فى الأدب الشيعى نثره وشعره . وإنا مبينون ما تركته من أثر فى دولة النثر أولا ثم فى دولة الشعر ثانيا .

الفصل الأول
فى النـــثر

---

(١) الخطابة

لما قام الخلاف بين على ومعاوية شرع كل منهما يخطب فى جنوده وأنصاره محرضا إياهم على القتال والكفاح ، فراجت سوق الخطابة رواجا عظيما ، وارتفع شأنها إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، وكثر الخطباء فى كل قطر من علويين وأمويين وخوارج ، كل يؤيد وجهة نظر الحزب الذى ينتمى إليه ، وكل يحرض على أعدائه ويطعن فيهم ويرميهم بكل نقيصة . نهضت الخطابة فى كل صقع : فى الشام وفى العراق وفى مصر وفى الحجاز وفى اليمن . وامتاز أسلوبها بالقوة والمتانة وكثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والاقتباس من الشعر والأمثال فضلا عن البراهين والأدلة التى يسوقها كل خطيب ليدعم بها رأيه ويؤيد مذهبه . وكانت الخطب . ولا سيما خطب العلويين تفيض بالعواطف وتزخر بالحماسة وتطفح بالتحريض على القتال والنزال . فيها تهديد بغضب الله على كل من يتخلف عن الجهاد وفيها ترغيب بدخول الجنة لمن يجاهدون ويكافحون . وقد بلغت فى الطول درجة لم تصل إليها من قبل .

ومن أشهر خطباء ذلك العصر الإمام على الذى امتاز بمضاء لسانه ، وعلو بيانه ، وقوة منطقه ، وسطوع حجته ، ومواتاة البلاغة له فى خطبه

وكتبه ورسائله وسوابغ حكمه وجوامع كلمه . قال الشريف الرضى فى مقدمة نهج البلاغة يصف عليا : « كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومَوْلِدَها ، ومنه عليه السلام ظهر مَكنونُها وعنه أُخذتْ قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كلُّ قائلٍ وخَطيب ، وبكلامهِ استعان كلُّ واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبقَ وقصروا ، وقد تقدَّم وتأخروا ، لأن كلامَه عليه السلامُ الكلامُ الذى عليه مَسحةٌ من العلم الإلهى ، وفيه عَبْقةٌ من الكلام النبوى . » ومن بليغ خطبه قوله .

« أما بَعْد ، فإن الجهادَ بابٌ من أبوابِ الجنةِ ، فتحه اللهُ لخاصةِ أوليائِه ، وهو لباسُ التقوى ، ودرعُ اللهِ الحصينةُ ، وجُنَّتُه الوثيقة . فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوبَ الذُّل ، وشَمله البلاءُ ، ودُيِّث بالصَّغار والقَماءةِ ، وضُرب على قلْبِهِ بالإسْهابِ ، وأديلَ الحقُّ منه بتضييعِ الجهادِ ، وسيمَ الخسفَ ومُنِعَ النَّصْفَ . ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتالِ هؤلاء القومِ ليلا ونهارا ، سرا وإعلانا ، وقلتُ لكم اغزوهم قبلَ أن يغزوكم ، فو الله ماغُزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنت عليكم الغارات ، ومُلِكت عليكم الأوطان . وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبارَ ، وقد قتل حسانَ البكرىَّ وأزالَ خيلَكم عن مَسالحِها . ولقد بلَغنى أن الرجلَ منهم كان يدخل على المرأةِ المسلمةِ والأخرى المعاهدةِ فينتزعَ حُجُلَها [١] وقُلُبها [٢] ، وقلائدَها ورُعُثَها [٣] ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاعِ [٤] والاسترحامِ ، ثم انصرفوا وافرين ، مانالَ رجلا منهم كلمٌ ، ولا أريق لهم دم . » وهى طويلة يراها القارىء فى كثير من

(١) الحجل بالكسر الخلخال . (٢) السوار .
(٣) واحده رعثة بالفتح وهو القرط . (٤) ترديد الصوت بالبكاء .

كتب الأدب لا سيما البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد. وأنت ترى أن عليا بدأ خطبته بالترغيب فى الجهاد الذى هو باب من أبواب الجنة وطريق يؤى إلى النعيم المقيم، وترك هذا الجهاد يسوق الناس إلى الذل والعبودية. ثم أخذ يستنفر قومه إلى الحرب فذكر أن عسكر أخى غامد قد دخلت الأنبار وارتكبت فيها من الجرائم شيئا كثيرا. قتلت الرجال وحرقت الدور ودمرت الأحياء. ثم وضع علىّ يده على أهم ما يثير العربى وهو العرض فأخبرهم أن الرجل من هؤلاء الغزاة كان يدخل على المرأة فيسلبها حليها وينصرف آمنا مطمئنا.

* * *

أما الأمويون فكانوا يملئون خطبهم بالشتائم والسباب والمطاعن والمثالب فى على وآل بيته. وكان الخطباء فى المساجد يختمون خطبة الجمع بلعن علىّ والترحم على عثمان والاستغفار له، وإطراء شيعته. روى الطبرى أن معاوية بن أبى سفيان لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة فى جمادى سنة ٤١ هـ، دعاه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال... «أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتمادا على بصرك بما يرضينى ويسعد سلطانى، ويصلح به رعيتى، ولست تاركا إيصاءك بخصلة، لا تتحمّ[1] عن شتم علىّ وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب على والإقصاء لهم وعدم الاستماع منهم....[2]» قال الطبرى «إن المغيرة أقام عاملا على الكوفة لمعاوية سبع سنين وأشهرا وهو من أحسن شىء سيرة وأشده حبا للعافية، غير أنه لا يدع ذم علىّ والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه..»

(١) لا تنحب. (٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٤١ طبع أوربا.

(٢) الرسائل

ظهر أثر التشيع واضحا جليا فى الرسائل التى تبودلت بين علىّ ومعاوية وبين الحسن ومعاوية وبين زينب بنت على وبين يزيد ، وبين محمد بن عبد الله وبين المنصور ، وبين غير هؤلاء من علويين وأمويين أو علويين وعباسيين . وقد امتازت هذه الرسائل بطولها ، وبقوة أسلوبها ومتانة تركيبها . ترى فيها الحجج القوية ، والبراهين الساطعة ، والأدلة الواضحة التى يأتى بها كاتبها تأييدا لما يقول ، وطعنا على صاحبه واسقاطا لما يدعى فى الخلافة . واظهارا لنقائص الخصم ومثالبه . فيها ترغيب وتهديد ، ووعد ووعيد .

وامتازت هذه الرسائل كذلك بكثرة الاقتباس من القرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر . ومن أمثلة ذلك أن المنصور بعث رسالة إلى محمد بن عبدالله بالمدينة ، وكان قد خرج عليه ، وأعلن الحرب ضده — يرغبه ويرهبه ، وينذره عاقبة الخروج والعصيان ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى الجماعة . فكتب إليه محمد بن عبدالله هذا الكتاب

« بسم [1] الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المهدى محمد بن عبدالله إلى عبدالله بن محمد . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحْيِي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى

(١) تاريخ الطبرى جـ ٩ ص ٢٠٨ .

الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض . ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على ، فإن الحق حقنا ، وانما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا كان الوصى ، وكان الإمام . فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا : لسنا من أولاد اللُّعَناء ولا الطُّرَدَاء ، ولا الطُّلَقاء . وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما علىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صَلّى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولدين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة : وإن هاشما ولد عليا مرتين وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين . وإنى أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأبا ، لم تعرق فى العجم ، ولم تتنازع فىّ أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام حتى اختار لى فى النار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار . ولك الله علىّ إن دخلت فى

طاعتى . وأجبت دعوتى . أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ماأعطيته رجالا قبلى : فأى الأمانات تعطينى؟ أأمان ابن هُبيرةَ ؟ أم أمان عمك عبدالله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ ؟»

فأنت ترى فى هذه الرسالة أن كاتبها محمد بن عبدالله عرض فيها نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهى أنهم ورثوا الخلافة عن النبي لأن أباهم كان وصىّ النبي ، ولأن أمهم بنت النبي ، وما كان لغيرهم أن يلى الخلافة وهم أحياء . ثم أخذ بعد ذلك يفتخر بقرابته من النبي ومكانته منه فى الإسلام وفى الجاهلية : وبهذه الكرامة التى خص الله بها أهل البيت . ثم ذكر أنه ابن خير الأخيار وخير الأشرار ، وخير أهل الجنة وخير أهل النار. أراد أبا طالب الذى مات ولم يسلم ، فيروى أنه أقل أهل النار عذابا لما قام به نحو النبي من واجب العطف والرعاية . ثم ختم رسالته بفقرة بلغت من القوة مبلغا عظيما ، حتى إن المنصور لم يستطع لها دفعا ، لأنها كانت من الحق بحيث لا يمكن دفعها . هذه الفقرة التى يذكر فيها خيانة المنصور لقوم استأمنوه فآمنهم ، ثم غدر بهم ، ونقض عهده ، وأخذهم على غرة وهم عزل من كل سلاح . وقد وقع هذا الخطاب وقوع الصاعقة فى قصر المنصور ، فاهتم به اهتماما كبيرا ، وانتدب الكتاب والأمراء للرد عليه ، ولكنهم لم يوفقوا إلى إرضائه فيما كتبوا ، فتولى الرد بنفسه ، وأملى هذه الرسالة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، إلى

محمد بن عبد الله : أما بعد ، فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فخرك بقرابة النساء ، لتضل به الجفاة والغوغاء : ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعَصبة والأولياء : لأن الله جعل العم أبا وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحدا رزق الإسلام ، لا بنتا ولا ابنا . ولو أن أحدا رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه عبدالله أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء : قال الله عز وجل : إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين . ولقد بعث الله محمدا عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : وأنذر عشيرتك الأقربين . فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان : أحدهما أبى : وأبى اثنان : أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ، وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير . وليس فى الشر خيار ؛ ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم . « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

أما ما فخرت به من فاطمة أم على ، وأنها شما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك

مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة : وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا ، وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا . وانظر ويحك أين أنت من الله غدا ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا ، وأولا وآخرا ، ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده . وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد . وماولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسين بن حسن : وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك . ولا مثل ابنه جعفر ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك .

أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم» . ولكنكم بنو ابنته . وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهارا ، ومرضها سرا ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون . وأما ماخرت به من على وسابقته ، فقد حضرتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه . وكان فى الستة فتركوه كلهم ، دفعا له عنها ، ولم يروا له حقا فيها . أما عبد الرحمن فقدم

عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له مُتَّهِم . وقاتلهُ طلحة والزبير . وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حَكَّم حكَمين رضى بهما ، وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه ، ثم كان حَسَن ، فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حِلّه ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه ، وأخذتم ثمنه . ثم خرج عمك حسين بن علىّ على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه . ثم خرجتم على بنى أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء من المحامل ، كالصبىّ المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسَنَيْنا سلفكم وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه ، للتقدمة مناله على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت . ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلما منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها

أبوك . فقضى لنا عليه عمر ، فما نزل عنها فى الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة . فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث . وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره . فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده . فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده . فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه . وأما ماذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم ، للأزمة التى أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها ، لمات طالب وعقيل جوعا ، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسُبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر : فكيف تفخر علينا وقد علمناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا إلا نفسكم . والسلام عليك ورحمة الله » .

* * *

وقد أتيت بهاتين الرسالتين ، لأضع أمام القارىء صورة من حرب الأقلام ، وهى لم تكن أقل عنفا وشدة من حرب السهام . وكما كانت رسالة محمد بن عبد الله قوية جدا ، كذلك كانت رسالة المنصور فى غاية

القوة ، ومنتهى الشدة ، فاستطاع أن يرد على خصمه رداً مفحماً ، وأن يهدم مفاخر العلويين هدماً تاماً ، ويقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين ، وأن يقضي على نظرية العلويين في الحكم قضاء مبيناً ، مدللا على قوله بالقرآن والسنة والإجماع : فبين أن العم أحق بالوراثة من البنت ، وأن العباس قد ورث النبي ، فطبيعي أن يرثه أبناؤه من بعده . وذكر المنصور أن العلويين إن كان لهم بعض حق فيها ، فقد باعه حسن لمعاوية بخرق ودراهم ، وغير العلويين بنكرانهم الجميل ، وكفرهم النعمة . فقد نهض العباسيون وجاهدوا في سبيل الثأر لهم ، حتى نصرهم الله ووفقهم ، وأدركوا الثأر ، وأذلوا الأمويين ، وأذهبوهم من الوجود ، ومع كل هذا لم يجدوا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجحوداً .

(٣) الحديث

والحديث كما تعلم جزء من الأدب . وقد اجتهد العلويون في وضع الأحاديث الكثيرة التي تثبت حق علي في الخلافة ، والتي ترفع من شأنه وتعلي من مقامه . وقد بلغت الأحاديث التي وضعها الشيعة آلافاً . ويتضمن كتاب الكافي ، وهو عندهم بمنزلة صحيح البخاري عند السنيين ، طرفاً منها . قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة [1] « واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم » .

(١) المجلد الثالث طبع مطبعة الحلبي ص ١٧ .

ثم قال : « فلما رأت البكرية ماصنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث » وقال في موضع آخر : « فلما رأت الشيعة ماقد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث » .

وهكذا ظل القوم يتنافسون في الوضع ، ويتسابقون في ميدان الكذب . وكان المراءون والمستضعفون من الرجال يضعون الأحاديث في فضائل عثمان وغيره من الصحابة ، ويتقربون بها إلى بني أمية ، الذين كانوا يجزلون لهم العطاء ، ويمنحونهم الجوائز والهبات . ثم أخذ الشيعة في وضع أحاديث تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم وفسقهم ، فقابلهم خصومهم بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها . ولم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا ، بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبينوا وضعها ، وأن رواتها غير موثوق بهم . ومثال ذلك ماروى عن علي بن أبي طالب أنه قال :

« خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ مررنا بنخل ، فصاحت نخلة بأخرى هذا النبي المصطفى وعلي المرتضى ، ثم جزناها فصاحت ثانية بثالثة موسى وأخوه هارون ، ثم جزناها فصاحت رابعة بخامسة هذا نوح وابراهيم ، ثم جزناها فصاحت سادسة بسابعة هذا محمد سيد المرسلين ، وهذا علي سيد الوصيين فتبسم ثم قال ياعلي : إنما سمى نخل المدينة صيحانا لأنه صاح بفضلي وفضلك » . وهذا الحديث أورده الإمام السيوطي في كتاب اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

مرويا عن ابن الجندى ثم ذكر أن ابن الجندى هذا كان شيعيا ضعيفا فى الرواية . ثم أورد السيوطى آراء علماء الحديث فيه وقد أجمعوا على أنه موضوع .

ومثال آخر وهو ماروى عن محمد بن أيوب ومحمد الأسدى ومحمد ابن يونس الكديمى « النظر إلى على عبادة » ذكر السيوطى أن محمد بن أيوب مشهور برواية الموضوعات ، ومحمد الأسدى ومحمد بن يونس الكديمى مشهوران بالكذب . وما رواه حفص بن عمر الإيلى من أن النبى قال لعلى حين خرج لغزوة تبوك :

« المدينة[1] لا تصلح إلا بى أو بك وأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » . قال ابن حبان : حفص كذاب يحدث عن الأئمة بالبواطيل .

ولم يكتف العلويون بوضع الأحاديث التى تؤيد وجهة نظرهم السياسية ، بل وضعوا أحاديث تثبت أن عليا اختصه الله بما لم يختص به أحدا من البشر ، ومنحه من العلم والذكاء والشجاعة والحلم وسائر الفضائل مالم يمنح غيره من الناس . ومثال ذلك ماروى عن ابن عباس أنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مدينة العلم وعلى بابها » أنكره ابن الجوزى وقال إنه موضوع .

وقد كان للفرس نصيب وافر فى وضع الأحاديث التى ترفع من شأن

(١) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى طبع مصر ص ١٧٧ .

على وآله . وقد أقر بعضهم بذلك ومنهم ميسرة [١] بن عبد ربه الذى اعترف بأنه وضع سبعين حديثا فى فضل على .

ومن أمثلة ماوضعه خصوم الشيعة ماروى من أن يهوديا أتى أبا بكر فقال : والذى بعث موسى وكلمه تكليما إنى لأحبك ، فلم يرفع أبو بكر رأسه تهاونا باليهودى ، فهبط جبريل ، وقال : يامحمد : إن العلى الأعلى يقرأ عليك السلام ويقول لك قل لليهودى الذى قال لأبى بكر إنى أحبك ، إن الله قد حاد عنه فى النار خلتين ، لاتوضع الأنكال فى عنقه ولا الأغلال فى عنقه لحبه أبابكر ، فأخبره ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وما ازددت لأبى بكر إلا حبا ، فقال « هنيئا لك ، أحاد الله عنك النار بحذافيرها ، وأدخلك الجنة لحبك أبا بكر » أتى به السيوطى فى كتابه الآنف الذكر ، وقد أنكره أئمة الحديث . وحديث آخر روى عن النبى أنه قال « يبعث معاوية يوم القيامة وعليه رداء من نور » ، جزم ابن الجوزى وابن حبان بأنه موضوع .

* * *

كثر وضع الأحاديث كثرة هائلة . وقد روى عن الإمام أبى حنيفة أنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا . ولم يصح عند الإمام مالك إلا ثلثمائة حديث . ولم يصح عند البخارى إلا ٢٦٠٠ من أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ حديث سمعها الناس .

وقد تجاوزوا فى الوضع والكذب دائرة الأشخاص إلى القرآن ،

(١) مختصر علم الحديث لابن كثير هامش ص ٨٣ .

فهذه الآية تشفى من مرض كذا وتلك تذهب الفقر وتجلب الغنى وهكذا. ومثال ذلك ماروى عن أبى هريرة أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حول ولاقوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء، وروا أن النبي قال : « من كانت له حاجة فليتوضأ وضوءا جيدا، ثم يلزم موضعا لايراه أحد فيصلى أربع ركعات، يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشر مرات، وفى الثانية فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشرين مرة، وفى الثالثة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثين مرة، وفى الرابعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله الله أحد أربعين مرة. فاذا فرغ قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة، ثم يقول لاحول ولا قوة إلا بالله العظيم خمسين مرة ثم يستغفر الله سبعين مرة، فإن كان عليه دين قضى الله دينه، وإن كان فقيرا أغناه الله، وإن كان غريبا رده الله إلى أهله، وإن كان عليه من الذنوب حشو الدنيا يغفر الله له، وإن لم يكن له ولد فيسأل الله يرزقه ولدا »

* * *

وقد انغمس فى الكذب والافتراء فريق ممن عرفوا بالتقوى والورع والنسك والزهد. فترتب على هذا أن الشعوب الإسلامية أصبحت ألعوبة فى يد فريق من الناس يسيرونها وفق أهوائهم، ويستغلونها لمنفعتهم الخاصة باسم الدين وهم من أبعد الناس عن الدين. وقد أثر هذا فى فى حياة المسلمين وأدى بهم إلى نوع من الذل والعبودية وضرب من التأخر والانحطاط.

(٤) القصص

قيل إن معاوية كتب إلى عماله « أن [1] انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم ، واكتبوا الى بكل مايروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته ، ففعلوا ذلك حتى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء ويفيضه فى العرب منهم والموالى ، فكثر ذلك فى كل مصر وتنافسوا فى المنازل والدنيا فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا بذلك حينا ، ولما كثرت الروايات فى مناقب عثمان كتب معاوية إلى عماله ليحملوا الناس على الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا يتركوا منقبة يرويها أحد من المسلمين فى أبى تراب إلا ويأتوا بمناقض لها فى الصحابة مفتعلة ، فقرئت كتب معاوية على الناس فى مختلف الأمصار فتسابق القوم فى اختلاق المناقب وإلصاقها بكثير من الصحابة وجدوا فى ذلك إلى أبعد حد ، وأشادوا بتلك المناقب على المنابر ودفعوا بما اختلقوا إلى معلمى الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير حتى حفظوه كما يحفظون القرآن ، وعلموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم

ولما تولى الحجاج العراق ، واشتدت وطأته على العلويين ، تقرب إليه أهل النسك والصلاح ببغض علىّ وعيبه والطعن فيه ، كما أنهم أثبتوا قدرة

(١) شرح ابن أبى الحديد المجلد الثالث ص ١٥ وما بعدها .

فائقة على الكذب والافتراء فأضافوا قسطا وافرا إلى ما وضعه أسلافهم من الفضائل والمناقب وألصقوها بكثير من زعماء المسلمين الأولين.

فلما رأى العلويون ذلك عمدوا إلى مقابلة هذه الحركة بضدها وبرهنوا على أنهم لا يقلون عن خصومهم فى القدرة على الوضع والاختلاق. فصنعوا المناقب الكثيرة لصاحبهم، ونسبوا إليه كل فضيلة، واجتهدوا فى ذلك اجتهادا كبيرا.

قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة «وما أقول فى رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضمارها، ومجلى حلبتها. كل من برع فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى. وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهى، لأن شرف العلم بشرف المعلوم. ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنه نقل، وإليه انتهى ومنه ابتدأ. فان المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن تلامذته وأصحابه، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه عليه السلام».

ومن خوارق العادات ما رواه صاحب الأغانى[1] من أن عليا عزم على الركوب، فلبس ثيابه، وأراد لبس الخف، فلبس أحد خفيه ثم هوى إلى الآخر فانقض عقاب من السماء فخلق به ثم ألقاه فسقط منه أسود[2] وانساب فدخل جحرا فلبس على بن أبى طالب الخف. وفى ذلك يقول السيد الحميرى:

---

(١) ص ٦ ج ١.

(٢) الأسود: العظيم من الحيات.

ألا ياقومُ للعجبِ العُجَابِ ... لخُفِّ أبى الْحُسيْنِ ولِلحُبابِ
أَتَى خُفًّا له فانساب فيه ... ليَنْهَشَ رِجلَهُ منه بِنَابِ
فَخَر من السماءِ له عُقَابٌ ... من الْعُقبانِ أو شِبْهِ العقَاب
فطار به فحلّق ثُمَّ أَهْوَى ... به الأَرْض من دون السَّحَابِ
إلى جحْرٍ له فانساب فيه ... بَعيدِ القَعْرِ لم يُرْتَجْ ببَاب
كريهُ الوجْهِ أسودُ ذو بَصيصٍ ... حديدُ النَّابِ أَزْرَقُ ذو لُعَابِ
وَدُوفِعَ عن أبى حسن عليٍّ ... نقيعُ سُمَامِهِ بعـــد انْسِيَابِ

* * *

ولما شاع التدوين وانتشر التأليف ظهرت كتب كثيرة فى مناقب أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب رسول الله . ذكر ياقوت [1] أن الطبرى « رجع إلى طبرستان فوجد الرفض قد ظهر ، وسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهلها قد انتشر ، فأملى فضائل أبى بكر وعمر حتى خاف أن يجرى على لسانه ما يكرهه فخرج منها من أجل ذلك » .

قال ابن أبى الحديد [2] « ولقد كان الفريقان فى غنية عما اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل على عليه السلام الثابتة الصحيحة وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة ما يغنى عن تكلف العصبية لهما ، فإن العصبية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوىء والمقابح . »

(١) معجم الأدباء جـ ١٨/٨٥ . (٢) المجلد الثالث طبع الحلبى ص١٧ .

كانت هذه الكتب الكثيرة التى ألفت عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى مبنية على الخيال ، فيها أساطير وخرافات فهى قصص أدبية فيها لذة كبيرة ومتعة عظيمة . وقد انتشرت هذه القصص بين الجمهور خصوصا مادار منها حول على وأبنائه وشغف العامة بها شغفا عظيما وأقبلوا على تلاوتها فى مجالس السمر . ومن هذا القبيل قصص كتبت فى عصور مختلفة عن آل البيت مثل السيدة زينب حارسة مصر ، والحسن والحسين والسيدة نفيسة والسيدة عائشة والخضر وغيرهؤلاء . ثم تجاوز الأمر آل البيت إلى الأولياء والأقطاب ، فوضعت كتب عن السيد البدوى ، والسيد أحمد الرفاعى ، وابراهيم الدسوقى ، وعبد الرحيم القنائى ، والسيد أبى الحجاج .

وهكذا اجتهد المسلمون شيعيين وسنيين فى نشر الخرافات والأوهام والأساطير والأباطيل حول زعماء المسلمين من آل البيت وغيرهم فتأثرت بها عقائد العامة وتصوراتهم فى العصور المختلفة ، وترتب على ذلك أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تركوا الإسلام الصحيح الذى يقوم على التوحيد . واتخذوا أربابا كثيرين يدعونهم من دون الله إذا مسهم الضر .

فنرى من هنا أن التشيع قد أخرج نوعا من الأدب كان سببا فى الهبوط بالمسلمين إلى هوة سحيقة من التأخر والانحطاط . وقد أفلح الوهابيون فى القضاء على كثير من هذه الخرافات فى داخل بلادهم ، أما فى الأقطار الإسلامية الأخرى فالحال باقية كما هى عليه حتى بين طبقة المتعلمين .

(٥) انتحال القول

ولم يقف أثر التشيع فى النثر العربى عند ماقدمناه بل تعداه إلى شىء آخر ، وهو وضع أدباء الشيعة لأقوال وخطب ورسائل وإسنادها إلى أئمتهم وبخاصة على بن أبى طالب . فقد أخذ ماينسب إليه من خطب وأمثال وحكم يزداد يوما بعد يوم ، حتى أتى الشريف الرضى فجمع كل ماينسب إليه فى كتاب ضخم سماه نهج البلاغة . ونحلوه كلاما يخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف . ولا يعقل أن يظهر مثل هذا التكلف قبل عصر العباسيين .

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بمالها من غرائب النحت والاشتقاق ومثال ذلك « وإنك أنت الله الذى لم تتناه فى العقول فتكون فى مهب فكرها مكيفا ، ولا فى رويات خواطرها فتكون محدودا مصرفا » .

ومما ينسب إليه قوله « سلونى قبل أن تفقدونى ، فإن بين كتفى علما جمًّا خبرنى به حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقام إليه صعصعة ابن صوحان ، فقال له يا أمير المؤمنين : متى يخرج الدجال ؟ فقال له أقعد ياصعصعة ، فقد علم الله جل ثناؤه مقامك ، ولكن له علامات وهنات وأشباه يتلو بعضها بعضا حذو النعل بالنعل تكون فى حول واحد فإن شئت نبأتك بعلاماته . فقال عن ذلك سألتك يا أمير المؤمنين ، قال له : أعقد بيدك ياصعصعة . إذا أمات الناس الصلاة ، وأضاعوا

الأمانة ، واستحلوا الكذب ، وأكلوا الربا ، وأخذوا الرشا ، وشيدوا البناء ، واتبعوا الأهواء ، وباعوا الدين بالدنيا ، واستخفوا بالدماء ، وكان الحلم ضعفا ، والظلم فخرا ، والأمراء فجرة ، ووزراؤهم وأمناؤهم خونة ، وقراؤهم فسقة ، ويظهر الجور ، ويكثر الطلاق وموت الفجاءة ، وحليت المصاحف ، وزخرفت المساجد ، وطولت المنابر ، وخربت القبور ، ونقضت العهود ، واستعملت المعازف ، وشربت الخمور[1] » .

فظاهر من هذه القطعة أنها لا يمكن أن تصدر إلا عن شخص عاش فى العصر العباسى الثانى ، حينما انغمس الناس فى الترف والنعيم ، فأنشأوا القصور الفخمة ، وأقاموا المساجد العظيمة ، وتأنقوا فى بنائها وزخرفوها وبرعوا فى زخرفتها . وشملت عنايتهم جميع فروع الحياة من ملبس ومأكل ومسكن . وتفننوا فى كتابة المصاحف وتحليتها بالذهب والفضة ، وأبدعوا فى ذلك إبداعا عظيما . فأين كل هذا من عصر علىّ ؟

* * *

وعلاوة على ما تقدم فإن أدباء الشيعة وضعوا كثيرا من القطع الأدبية والخطب والرسائل التى تؤيد مذهبهم وتدعم رأيهم أو التى ترفع من شأن على وأبنائه ، وأجروها على ألسنة أشخاص مختلفين . ومثال ذلك ما رواه أبو على القالى[2] فى كتاب الأمالى من أن معاوية قال لضرار الصدائى : يا ضرار صف لى عليا رضى الله عنه . قال أعفنى يا أمير المؤمنين . قال لتصفنه . قال : أما إذ لابد من وصفه ، فكان والله بعيد

(١) نهج البلاغة .
(٢) أمالى القالى ج ٢ ص ١٤٩ .

المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزيرَ العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن . كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين . ويقول يا دنيا غرى غيرى . إلى تعرضت ؟ أم إلىَّ تشوفت ؟ ؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها . فعمرك قصير ، وخطرك حقير . آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق . فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا الحسن » وفى رواية أخرى فبكى معاوية ووكف دموعه على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه : وقد اختنق القوم بالبكاء ، وقال رحم الله أبا الحسن » . كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها .

أما بعد ، فهل كان معاوية يجهل عليا ويحتاج إلى من يصفه له ؟ كلا ! لقد كان معاوية يعرف عليا معرفة جيدة ولا يجهل شيئا من أخلاقه وعاداته .

ثم إنك ترى بعد ذلك أن معاوية ومن معه بكوا حتى كادوا

يختنقون من البكاء ، تدفقت دموعهم ، وانهمرت عَبَرَاتهم . ثم ترى معاوية يقول : رحم الله أبا الحسن .

وقد سبق لك أن عرفت أن معاوية كان يوصى عماله بأن يختتموا خطبهم فى المساجد بسب علىّ وآل بيته والترحم على عثمان والاستغفار له . قال معاوية للمغيرة « لا تتحم عن شتم علىّ وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علىّ والإقصاء لهم وترك الاستماع لهم وبإطراء شيعة عثمان والإدناء لهم والاستماع لهم ، وقد قتل كثيرين ممن رفضوا أن يتبرأوا من علىّ .

فإذا من السهل علينا أن ندرك أن هذه القطعة موضوعة ، وقد أخفق واضعها فيما أراد ولم يوفق فيما سعى .

* * *

وقد أفرد ابن عبدربه فى كتاب العقد الفريد فصلا خاصا للوافدات على معاوية من نساء زعماء الشيعة اللاتى قتل أزواجهن فى الحرب ، ومن الوافدات عليه سودة ابنة عمارة ، وبكارة الهلالية والزرقاء ، وأم الخير بنت مرعش . وقد روى الشعبى أقوال هؤلاء النسوة مع معاوية ، وفيها مدح لعلىّ واعتذار لمعاوية وطلب الصفح والعفو . وتنتهى هذه الأقوال بأن يسأل معاوية كلا منهن عن حاجتها ويجزل لهن العطاء ويردهن إلى ديارهن إلا أروة بنت عبد المطلب فإنها لم تسأله شيئا وانصرفت وهى غاضبة ناقمة ، ساخطة على الدهر مافعل بآل على . ونحن مضطرون إلى الشك فى صحة هذه الأقوال لأنها أتت عن طريق الشعبى وهو شيعى يكره الأمويين وقد خرج عليهم مع عبد الرحمن بن الأشعث

أيام الحجاج وعفا عنه بنو أمية أخيرا ، والشيعة مشهورون بالكذب والاختلاق . أنظر إلى كثير حين يقول فى محمد بن الحنفية

هو المهـــدى خبرناه كعب أخو الأحبار فى الحقب الخوالى

فلما قيل هل رأيت كعبا . قال : لا ، قيل له فلم قلت خبرناه كعب قال : بالتوهم .

وفضلا عما تقدم فإن الشعبي كان يشرب الخمر ، ولم يكن متمسكا بأهداب الدين والفضيلة .

ولعل من أروع ما أتى به صاحب العقد الفريد المناظرة بين المأمون والعلماء واحتجاجه عليهم فى فضل على . فقد روى أن المأمون جمع أربعين عالما من المتفقهين فى الدين وكان على رأسهم إسحاق بن إبراهيم ابن إسماعيل بن حماد بن زيد . وبدأ المأمون حديثه معهم بقوله « إن أمير المؤمنين يدين الله على أن على بن أبى طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولى الناس بالخلافة له . » وهذه المناظرة طويلة وممتعة فليرجع إليها القارىء إن شاء . وهى من غير شك من وضع أحد دعاة الشيعة . وقد أورد ابن عبد ربه فى مكان آخر ما نصه « قال المأمون لعلى بن موسى : علام تدعون هذا الأمر ، قال : بقرابة على وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له المأمون : إن لم تكن إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته من هو أقرب إليه من على أو من هو فى قعدده . وإن ذهبت إلى قرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الأمر بعدها للحسن والحسين »

فقد أبتزهما على حقهما وهما حيان صحيحان فاستولى على مالا حق له فيه فلم يجد على بن موسى جواباً » .

فالكلام الذى نسب إلى المأمون فى فضل على وإن كان من وضع الشيعة أنفسهم إلا أن الثابت أن المأمون كان يميل إلى العلويين ، وقد عهد بولاية العهد من بعده إلى على بن موسى الذى سبق ذكره ولكن هذا مات قبل أن يتولى مقاليد الأمور وقد ادعى الشيعة أنه مات مسموما ، وربما كان هذا صحيحا ، فلعل المأمون رأى رأيا ثم بدا له غيره فتخلص من على بأن دس له السم . والدليل على ذلك أن المأمون أجرى ولاية العهد بعد وفاة على فى العباسيين مع أنه كان قادرا على اختيار شخص آخر من العلويين لو أنه ثبت على رأيه الأول .

الفصل الثانى

خطباء الشـــيعة

الإمام على

مولده : ولد قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة . وكانت ولادته بمكة بالكعبة . وفى ذلك يقول السيد الحميرى :

ولدته فى حرم الإله وأمنه ... والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب كريمة ... طابت وطاب وليدها والمولد
فى ليلة غابت نحوس نجومها ... وبدت مع القمر المنير الأسعد
مالف فى خرق القوابل مثله ... إلا ابن آمنة النبى محمـــد

ثقافته وتهذيبه : حفظ الإمام على القرآن حفظا جيدا ووعى الحديث وتفقه فى الدين ، وتأثر فصاحة الرسول وبلاغته ، كما وقف على كثير من شعر من سبقه من الشعراء ، فلا عجب أن كان فارساً من فرسان البلاغة ، وعلما من أعلام البيان . قال الأستاذ محمد حسن نائل المرصفى [1] « بهذه الخصال الثلاث — يعنى جمال الحضارة الجديدة ، وجلال البداوة القديمة ، وبشاشة القرآن الكريم — امتاز الخلفاء الراشدون . ولقد كان المجلى فى هذه الحلبة علىّ صلوات الله عليه . وما أحسبنى أحتاج فى إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة ، ذلك الكتاب الذى أقامه

(١) فى مقدمة شرحه لنهج البلاغة .

الله حجة واضحة على أن عليا رضى الله عنه قد كان أحسن مثال حى لنور القرآن وحكمته ، وعلمه وهدايته ، وإعجازه وفصاحته » .

وقد سبق أن ذكرنا أن الخطب التى تنسب إلى على بن أبى طالب جمعت كلها فى كتاب ضخم سمى « نهج البلاغة » . والآن نريد أن نتكلم عن هذا الكتاب الذى هو أثر من أنفس الآثار التى تركها التشيع فى الأدب العربى .

نهج البـــلاغة

كان الكلام الذى ينسب إلى على مدونا فى كثير من الكتب . وقد بقى كذلك حتى جاء الشريف الرضى فحسن له بعض أصدقائه كما قال أن يجمع مايعزى إلى على من خطب ومواعظ وحكم ، وما صدر عنه من رسائل . قال فى مقدمة النهج : « وسألونى عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه ، ومتشعبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وآداب ، علما أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية مالا يوجد مجتمعا فى كلام ولا مجموع الأطراف فى كتاب . . . فأجبتهم إلى الابتداء بذلك ، عالما بما فيه من عظيم النفع ، ومنشور الذكر ومذخور الأجر » .

ترتيب الكتاب : قال الشريف الرضى « ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة : أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ . فأجمعت بتوفيق الله على الابتداء

باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ، ثم محاسن الحكم والأدب ، مفردا لكل صنف من ذلك بابا ، ومفصلا فيه أوراقا لتكون مقدمة لاستدراك ماعساه يشذ عنى عاجلا ، ويقع إلى آجلا . وإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج فى أثناء حوار ، أو جواب سؤال ، أو غرض آخر من الأغراض فى غير الأنحاء التى ذكرتها وقررت القاعدة عليها نسبته إلى أليق الأبواب به ، وأشدها ملاءمة لغرضه . وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة ، ومحاسن غير منتظمة ، لأنى أوردت النكت واللمع ، ولا أقصد التتالى والنسق » .

محتوياته : ضم كتاب نهج البلاغة بين دفتيه ٢٤٢ خطبة وكلاما و ٧٨ كتابا ورسالة و ٤٩٨ كلمة من روائع الحكم وجوامع الكلم .

شروحه : شروح هذا الكتاب تنيف على الخمسين . والمعروف منها الآن لدى الناس :

١ — شرح ابن أبى الحديد . وهو عبد الحميد بن هبة الله المدائنى المشهور بابن أبى الحديد . ولد عام ٥٨٦ هـ وتوفى عام ٦٥٦ هـ أهداه إلى الوزير ابن العلقمى رئيس الشيعة ببغداد فى ذلك الوقت ، وفى أيام هذا الوزير زالت الخلافة العباسية من الوجود . وابن أبى الحديد وإن ادعى أنه معتزلى إلا أنى أشك فى هذا الإدعاء وأعتقد أنه كان شيعيا متعصبا . وقد طبع هذا الشرح بمصر عام ١٣٢٩ بمطبعة الحلبى . وهو أشهر الشروح التى ظهرت لهذا الكتاب .

٢ — شرح كمال الدين بن ميثم التجرانى . وهو من علماء القرن

السابع الهجرى . قضى شطرا من حياته ببغداد ، وقد جاء فى مقدمة شرحه « جعلت هذا الكتاب ، بعد كتاب الله وكلام رسوله ، مصباحا أستضىء به فى الظلمات ، وسلما أعرج به إلى طبقات السموات » وقد فرغ منه فى رمضان من عام ٦٧٧ هـ . وطبع ببلاد فارس سنة ١٢٧٤ هـ ويقع فى نحو أربعمائة صفحة من الحجم الكبير .

٣ — شرح ميرزا حبيب الله بن محمد بن هاشم الهاشمى العلوى الموسوى الأزربجانى . وهو من علماء إيران . كان حيا فى عام ١٣٠٣ هـ . وقد أهدى شرحه إلى شاه إيران مظفر الدين خان . وهذا الشرح ضخم جدا فى أربعة أجزاء من الحجم الكبير يتألف كل جزء من أربعمائة صفحة . طبع ببلاد فارس عام ١٣٥١ هـ وأطلق عليه اسم « منهاج البراعة ومشرع الفصاحة » .

٤ — شرح الشيخ محمد عبده وهو لا يقاس بالنسبة لغيره من الشروح إذ اقتصر فيه صاحبه على إيضاح الصعب من المفردات .

* * *

لقد اهتم أدباء الشيعة بشرح هذا الكتاب اهتماما كبيرا ، وبالغوا فى الإسهاب والتطويل ، وملئوا شروحهم بالخرافات والخزعبلات التى تضحك الثكلى .

* * *

منزلته : ورد فى مقدمة شرح حبيب الله لكتاب نهج البلاغة مانصه « هو كتاب فى الاتقان تلو الفرقان ، لكونه مواعظ أمير المؤمنين عليه السلام ، وكلماته المشهورة على لسان المسلمين ، المشتملة على اثبات

الصانع ، وإظهار البدايع ، والتوحيد بالبرهان القاطع ، والبيان النافع والحكمة والموعظة الحسنة ، والقصص والأمثال » .

وقال محمد حسن نايل المرصفى : «اجتمع لعلى (ع) فى هذا الكتاب مالم يجتمع لكبار الحكماء ، وأفذاذ الفلاسفة ، ونوابغ الربانيين من آيات الحكمة السامية ، وقواعد السياسة المستقيمة ، ومن كل موعظة باهرة ، وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر . خاض على فى هذا الكتاب لجة العلم والسياسة والدين ، فكان فى كل هذه المسائل نابغة مبرزا . ولئن سألت عن مكان كتابه من الأدب بعد أن عرفت مكانه من العلم ، فليس فى وسع الكاتب المسترسل ، والخطيب المصقع ، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية فى وصفه ، والنهاية فى تقريظه » .

وقال محمد عبده « تأملت جملا من عباراته من مواضع مختلفات ، وموضوعات متفرقات . فكان يخيل لى فى كل مقام أن حروبا شبت ، وغارات شنت . وأن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وأن جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ، فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج ، والقويم الأملج وتمتلج المهج بروائع الحجج ، فتفل من دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلا والحق منتصر ، والباطل منكسر ومرج الشك فى خمود ، وهرج الريب فى ركود . وأن مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين على ابن أبى طالب .

« بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع ، أحس بتغير المشاهد

وتحول المعاهد . فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية ، فى حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها ، وتقوم منها مرادها ، وتنفر بها عن مداحض النزال إلى جواد الفضل والكمال . وطورا كانت تنكشف إلى الجمل عن وجوه باسرة ، وأنياب كاشرة ، وأرواح فى أشباح النمور ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ، فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها . واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء . »

* * *

أما بعد ، فقد أتيت هنا بأقوال ثلاثة رجال فى كتاب نهج البلاغة وهى قطع مديح ألقى بغير حساب ظنا من كاتبيها أنهم يظفرون برضا الله ورسوله إن هم أزجوا هذا المديح . ولم يحاول أحد منهم أن يتناول النهج تناولا علميا يعود على القارىء بالنفع .

* * *

بحث وتحقيق : وقد رأيت لزاما على فى هذا المقام أن أتناول نهج البلاغة بالبحث والتحقيق سالكا فى ذلك سبيل العلماء الذين يفيدون القراء بما يقدمون لهم من حقائق ناطقة . أما هؤلاء الذين لا هم لهم إلا إرسال المدح والثناء فهمتهم هينة لينة ، فما أيسر أن تقول « هو كتاب فى الاتقان تلو الفرقان » ، وما أسهل أن تنمق فى مدحه الألفاظ كما نمقها الشيخان حسن نايل المرصفى ومحمد عبده . ولكن هذا لا يفيد القارىء فى كثير أو قليل . وبما أنى لم أخرج هذا الكتاب لأمدح فيه أو أقدح ،

بل حرصت فيه كما يرى القارىء على إظهار الحقائق وإبرازها ، لذلك لم أسر فى الطريق التى سار فيها هؤلاء المادحون .

* * *

صاحب النهج : فى كتاب نهج البلاغة أمور كثيرة تجعلنا نشك فى نسبة أكثر ما فيه إلى الإمام على . وهذا رأى سبقنا إليه القدماء . قال ابن أبى الحديد « كثير من أرباب الهوى يقولون إن كثيرا من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة . وربما عزوا بعضه إلى الرضىّ أبى الحسين وغيره » .

غير أن القدماء لم يشرحوا لنا أسباب الشك . أجل ! لقد أبدوا ارتيابهم ثم صمتوا . وقد رأيت لزاما علىّ أن أتناول أسباب الشك فى نسبة ما فى النهج إلى عَلِيٍّ بشىء من التفصيل .

* * *

أسباب الشك :

(أولا) سبق أن ذكرنا أن نهج البلاغة قد ضم بين دفتيه ٢٤٢ خطبة وكلاماً ، ٧٨ كتابا ورسالة ، ٤٩٨ حكمة . وهذا العدد الهائل لم يدون إلا فى العصر العباسى . وليس من شك فى أن حفظ هذا المقدار الضخم من الأمور المتعذرة . ومن هذه الخطب ما هو طويل جدا وليس من السهل وعيه وتذكر ألفاظه بعد أجيال . فقد بلغ عهد علىٍّ للأشتر النخعى مائتين وخمسين سطرا . وبلغت بعض خطبه مائتى سطر ، وبعضها ينقص قليلا عن المائتين . وإذا علمنا أن القرآن على عظيم خطره ، وجليل

شأنه كان مظنة أن يضيع لولم يتداركه المسلمون الأولون ، رأينا أنفسنا مسوقين إلى النظر بعين الارتياب فيما جاء منسوبا إلى على فى هذا الكتاب . وما الداعى إلى كتابة مثل هذا العهد المفرط فى الطول ولم يكن الأشتر غريبا عن على بل كان من أقرب الناس إليه . ولم يسبق أن كتب أحد من الخلفاء عهدا فى مثل هذا الطول ؟ ؟

(ثانيا) إذا ألقيت نظرة على الخطب المنسوبة لعلىّ لم تتمالك نفسك من الضحك ، وذلك لما جاء فى كثير منها من أمور وقعت بعد عصر على كقيام الدولة الأموية ، وسقوطها والقضاء على الأمويين قضاء مبرما بغير رحمة ولا شفقة ، وقيام دولة بنى العباس ، وظهور الفتن والقلاقل وانتشار الحروب والثورات ، وترك الناس للدين وانغماسهم فى الترف والنعيم . وقد سبق لنا أن أوردنا مثالا لذلك عند الكلام على « انتحال القول » ولا نرى بأساً من أن نورد للقارىء مثالا آخر ليزداد إيمانا على إيمان إن لم يكن قد اطلع على النهج . فمما ينسب إليه قوله « فوالذى نفسى بيده لا تسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها[1] وقائدها ، وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلا ، ويموت منهم موتا »

ألا إن أخوفَ الفتنِ عندى عليكم فتنةُ بنى أميةَ ، فإنها فتنةٌ عمياء مظلمة ، عمت خُطتها وخَصَّت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأَ البلاءُ من عمى عنها . وايم اللهِ لتَجدُنّ بنى أميةَ لكم أربابَ سوءٍ بعدى كالنَّابِ الضروس تَعذِمُ بفيها ، وتَخْبط بيدها ، وتَزْبُنُ برجلها

(١) الداعى إليها .

وتمنعُ درَّها. لايزالون بكم حتى لايتركوا منكم إلاَّ نافعا لهم أو غيرَ ضائرٍ بهم. ولا يزالُ بلاؤهُمْ حتى لايكونَ انتصارُ أحدِكم منهم إلا كانتصارِ العبد من ربِّهِ، والصاحِبِ من مُسْتَصْحِبِهِ. ترِدُ عليكم فتنتُهم شوهاءَ مَخْشِيَّةً، وقِطَعا جاهليةً، ليس فيها منارُ هُدًى، ولا علم يُرى، نحن أهل البيت فيها بمنْجَاةٍ، ولسنا فيها بدعاة. ثم يفرجُها الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومُهم خسفا، ويسوقُهم عُنْفا، ويسقيهم بكأسٍ مُصَبَّرَةٍ، لايعطيهم إلا السيف، ولا يحْلِسُهُمْ إلا الخوف. فعند ذلك تودُّ قريشٌ بالدنيا ومافيها لو يرونني مَقاما واحدا، ولو قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ لأقبل منهم ماأطلب اليوم بعضه فلا يُعطونني».

وأنت واجد خطبا كثيرة من هذا النوع. وهى من غير شك موضوعة ومحمولة على الإمام علىّ الذى لم يكن علام الغيوب. فهل هذه الخطب بلغت من الإتقان مايجعلها تلو الفرقان؟؟ وهل ترى فيها مارآه محمد عبده حين يقول «وأن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة فى عقود النظام، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج، والقويم الأملج وتمتلج المهج بروائع الحجج، فأين هو القويم الأملج؟؟ وأين هى روائع الحجج؟؟

(ثالثاً) وأمر ثالث يجعلك تزداد شكا وارتيابا وهو أن كثيرا من الخطب اشتمل على علوم لم تعرف فى المجتمع الإسلامى إلا بعد عصر علىّ بزمن طويل، كدقائق علم التوحيد، وأبحاث الرؤية والعدل، والتوسع فى كيفية كلام الخالق وابتعاده عن صفات الجسم وكيفياته، وتنزهه عن مجانسة مخلوقاته، كما تناولت موضوعات وصفية لم يطرقها

المسلمون إلا فى عصور متأخرة كوصف النملة والخفاش والطاووس. ومثال ذلك قوله من خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم « الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصى نعماءه العادون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون . الذى لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن . الذى ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود : ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود . فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه . أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له ، نفى[1] الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده . ومن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى منه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شىء لا بمقارنة وغير كل شىء لا بمزايلة . فاعل لا بمعنى الحركات والآلة . . . الخ » .

وفى هذه الخطبة اصطلاحات لم تعرف فى عصر الإمام علىّ ، بل عرفت بعده بقرون ، كما أن التعبيرات التى انطوت عليها هذه الخطبة لم تظهر إلا على أيدى علماء الكلام فى العصر العباسى . وعلاوة على ما تقدم فإنها رتبت ترتيبا منطقيا يبدأ بمقدمة تنتهى إلى نتيجة هى نفى الصفات عن الله ، وهذا أمر كان موضع خلاف شديد بين الفرق الإسلامية ولم يعرف إلا فى أيام العباسيين . فهى بلا ريب موضوعة على الإمام علىّ ، وهى ليست

(١) هذا كلام أرسطو الذى لم يعرف إلا بعد عصر الترجمة .

فى الإتقان تلو الفرقان ، ولا أجد فيها ما وجده محمد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذى يمتلج المهج بروائع الحجج .

(رابعا) وأمر رابع يجعلك تمعن فى الشك وتسرف فى الارتياب وهو أنك تجد فى خطب كثيرة روحا غريبا عن الإسلام ، فيها تناقض مع أحكام الدين الحنيف وأصوله ، وفيها روح ضار جدا بالمجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية . ترى فيها دعوة إلى الرهبنة وترك ما أحلّ الله من الطيبات فى هذه الحياة الدنيا . ومثال ذلك قوله يخاطب شخصا يسمى « نوفا » طوبى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة . أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا ، وترابها فراشا ، وماءها طيبا ، والكتاب شعارا ، والدعاء دثارا ، وقرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح بن مريم فإن الله عز وجل أوحى إلى عبده المسيح بن مريم أن مر بنى اسرائيل ألا يدخلوا بيتا من بيوتى إلا بقلوب طاهرة ، وأبصار خاشعة ، وأيد نقية . فإنى لا أستجيب لأحد منهم دعوة لأحد من خلق قبله مظلمة . يانوف لا تكونن شاعرا ولا عشارا[1] ولا شرطيا ولا عريفا[2] ولا صاحب كوبة[3] ولا صاحب عرطبة »[4]

وليس من المعقول أن يصدر مثل هذا القول من علىّ . وكيف ينهى الناس عن أن يكونوا شعراء ، وهو نفسه كان شاعرا ونسب إليه ديوان مشهور بين الناس ؟ ؟ كيف ينهى الناس عن أن يكونوا شعراء والإسلام أباح لهم ذلك ، والنبى كان ممن يطربون للشعر ويحرضون

(١) الذى يجمع العشور .
(٢) منصب دون الرئيس .
(٣) الكوبة الطبل .
(٤) عرطبة : العود وهو من آلات الضرب .

على قوله ؟ ؟ وكيف ينهى علىّ الناس عن أن يكونوا عشارين أو من رجال الشرطة ؟ ؟ ومن يجمع أموال الدولة ومن يسهر على حفظ الأمن والنظام فيها ؟ ؟ وفى هذه الخطبة تحريض على قرض الدنيا على منهاج المسيح بن مريم . وما شأن المسلمين بمنهاج المسيح ولهم من سنة رسولهم خير مرشد وأفضل دليل .

لا شك فى أن نسبة مثل هذه الخطبة للإمام علىّ تحط من شأنه ، وتضع من منزلته . ونحن نجل الإمام عليا وننزهه عن قول مثل هذه الخطب التى لا أرى أنها فى الإتقان تلو الفرقان . ولا أرى فيها ما رآه محمد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذى يمتلج المهج بروائع الحجج .

(خامسا) وأمر خامس يجعلك تجزم بأن جل ما فى النهج ليس لعلىّ وهو الاختلاف العظيم فى أساليب الخطب . ترى كلاما مرسلا على سجيته بغير تكلف ولا تصنع ومثال ذلك قوله من إحدى خطبه « أنبئت بسرا قد اطلع اليمن ، وإنى والله لأظن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم إمامكم فى الحق ، وطاعتهم إمامهم فى الباطل . . . الخ » .

على حين أنك ترى له نوعا آخر من الخطب يظهر فيه آثار الصنعة والتكلف المرذول ، والحرص الشديد على السجع وغير ذلك مما لم تعرفه العرب فى عصر علىّ ، بل عرف فى عصور متأخرة جدا ومثال ذلك ما ينسب إليه « الحمد لله المعروف من غير رؤية ، والخالق من غير روية . الذى لم يزل دائما قائما إذ لا سماء ذات أبراج ،

ولا حجبٌ ذات أرتاج ، ولا ليلٌ داج ، ولا بحرٌ ساج ، ولا جبل ذو فجاج ، ولا فجٌ ذو إعوجاج ، ولا أرضٌ ذات مهاد ، ولا خلقٌ ذو اعتماد . »

وقوله فى وصف السماء « ونظم بلا تعليق رهوات فُرُجِها ولاَحَمَ صدوع انفراجها ، ووشج بينها وبين أزواجها ، وذلل للهابطين بأمره ، والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها ، ناداها بعد إذ هى دخان فالتحمت عرى أشراجها . »

وانظر إلى الحرص على الجناس فى قوله « أرسله لإنفاذ أمره ، وإنهاء عذره ، وتقديم نذره ، وأحصاكم عددا ، ووظف لكم مددا ، فى قرار خبرة ، ودار عبرة . غرور حائل ، وضوء آفل ، وظل زائل ، وسناد مائل » .

ثم تأمل قوله « فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها واحلولت له الأمور بعد مرارتها ، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها ، وأسهلت له الصعاب بعد انصبابها ، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها ، وتفجرت عليه النعمة بعد نضوبها ، ووبلت عليه البركة بعد رذاذها . » ترى فقرا متساوية فى عدد كلماتها وفى التزام كلمة « بعد » فى كل منها واشتمال كل فقرة على طباق ، فضلا عن أنها تدور كلها حول معنى واحد . فالآثار الأدبية التى وصلت إلينا من عصر علىّ تختلف عن هذا النمط المتكلف اختلافا كبيرا وتبتعد عنه ابتعادا ظاهرا . وهذا شىء يرغمنا على رفض نسبة

تلك الخطب إلى الإمام على ، وهى ليست تلو الفرقان فى الإتقان ، ولا أرى فيها ما رآه محمد عبده من الصفيح الأبلج ، والقويم الأملج الذى يمتلج المهج بروائع الحجج .

(سادسا) وأمر سادس يدفعك إلى رفض كثير مما ينسب لعلىّ ، وهو أنك ترى خطبا كثيرة فيها وصف للحياة الاجتماعية على نحو لم يعرف إلا فى عصور متأخرة . ترى فى هذه الخطب طعنا على الوزراء والأمراء والحكام والولاة والعلماء والقضاة ، طعنا شديدا فى السلوك والأخلاق وفى الذمم والضمائر ، ووصفا للقضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة . ومثال ذلك ما ينسب إليه « إنَّ أبغضَ الخلائقِ إلى اللهِ رَجُلانِ : رَجلٌ وَكَلَهُ اللهُ إلى نفسِه ، فهو جائرٌ عن قَصْدِ السَّبيل ، مَشْغُوفٌ بكلامِ بِدْعَةٍ ، ودُعاءِ ضَلالَةٍ . فهُو فِتْنَةٌ لمنْ افْتَتَنَ به ، ضالٌّ عَن هَدْيِ مَنْ كان قبلَه ، مُضِلٌّ لمن اقْتَدَى بِهِ فى حياتِه وبعدَ وفاتِه ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ ، رَهْنٌ بِخَطيئَتِهِ . ورَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً ، مُوضِعٌ فى جُهَّالِ الأُمَّةِ ، عادٍ فى أَغْبَاشِ الفِتْنَةِ ، عَمٍ بما فى عَقْدِ الهُدْنَةِ . قد سَمَّاهُ أَشْبَاهُ الناس عَالِما وليسَ به . بَكَّر فاسْتَكْثَرَ مَن جَمْعِ ماقَلَّ منهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ ، حتى إذا ارْتَوى من آجِنٍ واكْتَنَزَ من غَيْرِ طَائِلٍ ، جَلَسَ بَيْنَ الناسِ قاضِيا ضَامِنا لِتَخْلِيصِ ما التَبَسَ على غَيْرِه . فإنْ نَزَلَتْ به إحدى المُبْهَماتِ هَيَّأَ لها حَشْوًا رَثًّا مِنْ رَأيِهِ ، ثُمَّ قَطَعَ به . فَهُوَ مِن لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فى مثلِ نَسْجِ العَنْكبُوتِ لا يَدْرِى أَصَابَ أم أَخْطَأَ . فإنْ أَصَابَ خَافَ أن يكونَ قد أخْطأَ ، وإن أَخْطأَ رَجَا أن يكُون قد

أصابَ ، جاهِلٌ خَبَّاطُ جَهالاتٍ ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَواتٍ ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى العِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ ، يُذْرِى الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الهشيم ، لا مَلِيءٌ واللهِ بِإِصْدَارِ ما وَرَدَ عَلَيْه ، ولا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إِلَيْهِ . لاَ يَحْسب العلمَ فى شىءٍ مما أنكره ولا يرَى أَنَّ من وراءِ مابلغَ مذهبا لغيره ، وإِنْ أظلمَ أمرٌ اكتَتَمَ به لما يعلَم من جهل نفسه . تصرُخُ من جَوْرِ قضائِه الدماءُ وتعجُّ منه المواريثُ . إلى اللهِ أشكو من معشرٍ يعيشونَ جهالا ويموتون ضلاَّلا ، ليس فيهم سلعةٌ أَبْوَرَ من الكتابِ إذا تُلِيَ حقَّ تِلاوتِه ، ولا سلعة انفق بَيْعا ولا أغلَى ثمنا من الكتابِ إذَا حرِّف عن مواضِعه . ولاعندهم أنكرَ من المعروف ، ولاأعرفَ من المنكر » .

ومما ينسب إليه وفيه وصف لحالة الفوضى التى كان عليها القضاء وهو أمر لم يعرف إلا فى العصر العباسى « ترِدُ على أحدِهم القضيةُ فى حكم من الأحكامِ فيحكم فيها برأيه ، ثم ترِدُ تلك القضية بعينها على غيره فيحكمُ فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاةُ بذلك عند الإمامِ الذى استَقْضاهُم فيصوبُ آراءهم جميعا . وإلهُهُم واحد ، ونبيُّهم واحد . وكتابُهم واحد . أفأمَرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ؟ أم نهاهم عنه فعصَوْه ؟ أم أنزلَ اللهُ سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامِه ؟ أم كانوا شركاءَ فلهم أن يقولُوا وعليه أن يرضى . . . الخ » فإذا علمت أن القضاة فى أيام علىّ كانوا من الصحابة ، ولم يكن هناك أئمة يجتمعون إليهم إلا أبوبكر وعمر وعثمان . ولم يكن هناك آجن يرتوون منه ، بل لم يكن لديهم سوى القرآن ، ولم يظهر هذا الاختلاف العظيم الذى نرى صورته فى هذه الخطب ، قطعت بأنها من وضع قوم عاشوا بعد علىّ بزمن

طويل ، وكتبوا ما كتبوا ثم نسبوه إلى على اعتقادا منهم بأن فيها ما يرفع شأنه ويسمو بمنزلته . وهى من غير شك ليست فى الإتقان تلو الفرقان . ولم أجد فيها ما وجده محمد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذى يمتلج المهج بروائع الحجج .

(سابعا) وأمر سابع يسلمك إلى الريبة فى هذا الكتاب . ترى فيه خطبا كثيرة تروى أمورا لا يقبلها العقل من شأنها لو صحت أن تؤيد حق على فى الخلافة . ومثال ذلك ما ينسب إليه : « ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحى عليه صلى الله عليه وآله ، فقلت يارسول الله ما هذه الرنة ، فقال هذا الشيطان أيس من عبادته . إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنك لست بنبى ، ولكنك وزير ، وإنك لعَلى خير » .

وقوله : « ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن رأسه لعلى صدرى . ولقد سالت نفسه فى كفى فأمررتها على وجهى ، ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعوانى فضجت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج ، وما فارقت سمعى هينمة منهم يصلون عليه ، حتى واريناه فى ضريحه ، فمن ذا أحق به حيا وميتا » .

وأظن أن القارىء سيضحك معى حينما يقرأ « إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبى ولكنك وزير ، وإنك لعلى خير » . ومعنى هذا أن علياً كان يسمع الوحى كما يسمعه الرسول ويراه كما يراه الرسول لكنه ليس بنبى وإنما هو وزير ، ولا أدرى ماوظيفة الوزير هنا وما عمله ؟ . ولا شك فى أنك ستغرق فى الضحك حينما تقرأ « ولقد

وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعوانى فضجت الدار والأفنية، ملأ يهبط وملأ يعرج » ، فالملائكة هنا قد نزلوا من السماء أفواجا يساعدون الإمام عليا فى مهمته وهى غسل رسول الله . ولا جدال فى أن عليا أعقل بكثير من أن يرسل مثل هذا القول . وليس فى نسبته إليه مايشرفه . وكيف يقال بعدئذ إن نهج البلاغة فى الاتقان تلو الفرقان؟ وهل فى مثل هذا رأى محمد عبده الصفيح الأبلج والقويم الأملج يمتلج المهج بروائع الحجج ؟ .

(ثامنا) وأمر ثامن يجعلك ترتاب فيما جاء بنهج البلاغة منسوبا إلى الإمام علىّ . وهو أنك تجد خطبا طال فى صدرها حمد الله ، وهذه عادة لم تعرف إلا فى العصر العباسى فى خطب الجمع والأعياد التى تلقى فى المساجد ، ولم تظهر قط فى أيام على . ومثال ذلك « الحمد لله كلما وقب ليل وغسق ، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق ، والحمد لله غير مفقود الإنعام ولا مكافىء الإفضال » وغير هذا كثير .

(تاسعا) وأمر تاسع يريبك فيما ورد منسوبا لعلىّ فى نهج البلاغة وهو أنك تجد خطبا فيها ذكر الوصى والوصاية ، مع أن عليا لم يقل هذا قط ولم تظهر خرافة الوصى إلا بعد مقتله . ومثال ذلك قوله وقد عنى آل البيت « هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفىء الغالى ، وبهم يلحق التالى ، ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة » ، وقوله « ومالى لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها فى دينها ! لا يقتصون أثر نبى ولا يقتدون بعمل وصى » ، فهل كانت فى عصره تلك الفرق التى يشير إليها ؟ أم أنها ظهرت بعده بزمن غير قصير ؟ .

(عاشرا) وأمر عاشر يقودك إلى الريبة فى نسبة ما جاء فى النهج إلى على ، وهو أنك تجد خطبا فيها معنى واحد عبر عنه بما يزيد على عشر جمل ومثال ذلك قوله : « لاانفصام لعروته ، ولافك لحلقته ، ولا انهدام لأساسه ، ولا زوال لدعائمه ، ولا انقلاع لشجرته ، ولا انقطاع لمدته ، ولا عفاء لشرائعه ، ولا جذ لفروعه ، ولا ضنك لطرقه ، ولا سواد لوضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عصل [1] فى عوده ، ولا وعث لفجه ولا انطفاء لمصابيحه ، ولا مرارة لحلاوته » فهذا إسهاب ممل وإسفاف لافائدة منه ولا خير فيه ، وهو مما لم يعرفه المسلمون الأولون .

فى الميزان : أما بعد ، فقد وضعنا نهج البلاغة أمامك فى الميزان ، وأطلعناك على مايشككنا فى نسبة أكثر ماجاء فيه إلى علىّ ، وضربنا للناس الأمثال لعلهم يقتنعون . وهناك خطب قليلة باقية فيها روح على ولكنها لم تسلم من التحريف والتصحيف والتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وذلك أمر طبيعى فى كل ماتأخر تدوينه من الخطب والرسائل وإنك لتجد هذه الخطب القليلة رويت بروايات فيها اختلاف كبير .

أما الأمثال والحكم فمعظمها هندى وفارسى عرفه العرب بعد عصر الترجمة . ولا أدرى كيف نسبوها إلى علىّ ؟ .

---

(١) التواء .

خطباء آخرون

كان أئمة الشيعة ينشرون دعوتهم بين الناس سرا ، فلم يجدوا أمامهم مجالا للقول فيقولوا ، ولا محلا للخطابة فيخطبوا . ولم يظهر بعد على من الخطباء سوى الحسن والحسين . وجل ماينسب إليهما موضوع . وليت شعرى من الذى روى خطبة الحسين فى كربلا وقد استشهد كل من معه من الرجال » ؟؟ .

ولفاطمة خطب تنسب إليها وقد رووا عنها كثيرا من الأحاديث ، ولعلى بن الحسين رسالة تعرف برسالة الحقوق .

وعلى الجملة فقد اجتهد أدباء الشيعة فى وضع الخطب والرسائل وجمع الحكم والأمثال والأدعية ونسبتها لأئمتهم .